

## الأصول الفكرية للمذهب الإباضي التأسيس السياسي والرؤية الكلامية

د. إيمان محمد محمد عمران\*

em.omran79@gmail.com

### ملخص:

تتناول هذه الدراسة فرقة أو مذهباً فلسفياً من الفرق أو المذاهب الإسلامية الكلامية، وهي فرقة الإباضية؛ فهذه الفرقة التي خلقتها وصنعت وجودها الاختلافات السياسية، والصراع حول الحكم، وأبرزت دورها، فكانت هي من الركائز الأهم في التأسيس للفرق الكلامية، بوصفها من أقدم الفرق، التي بنت رؤيتها وعقيدتها الدينية، من خلال الهيمنة العربية على مقاليد الصراع والحكم، وتهميش الأمم الأخرى، أو الموالي، الذين اعتنقوا الإسلام، وكشفت الدراسة عن ارتباط المذهب الإباضي بعلاقات واضحة بالمذاهب والفرق الأخرى. وتهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن الأصول الفكرية للمذهب الإباضي، ودوره في الفكر الإسلامي، وعلاقته بالتيارات الأخرى والمذاهب التي اتفق معها واختلف، وكيف كانت نظرة علماء الإباضية للخلافات السياسية، التي نشبت في مطلع تأسيس الدولة الإسلامية، ودورهم في إرساء علم الكلام. وقد اعتمدت الدراسة المنهج التحليلي الفلسفي، للوقوف على البنية الفكرية والثقافية للفلسفة الإباضية بصفة عامة، وأصولهم الفكرية السياسية بصفة خاصة، ومدى تطورها وفقاً للواقع التاريخي. وجاءت الخاتمة، لتبرز دور المذهب الإباضي في التأسيس لرؤية جديدة في الفكر الإسلامي، وتاريخ الفرق الكلامية، والسعي في استغلال الحوادث التاريخية من أجل تأكيد رؤيتهم.

الكلمات المفتاحية: مذهب، صراع، خوارج، أشاعرة، كفر النعمة، الكبيرة.

\* مدرس الفلسفة الإسلامية - كلية التربية - جامعة عين شمس

## مقدمة

تُعد الفرقُ الإسلاميةُ المختلفةُ التي نشأت نتيجة التلاقي الحضاري بين الحضارات السابقة للإسلام، والظروف السياسية والفكرية التي عاصرت نشأة هذه الفرق، من أبرز المظاهر الفكرية في تاريخ الأمة الإسلامية، وقد يظن البعض أن مثل هذه الفرق هي التي أحدثت شرخًا حضاريًا أو مجتمعيًا داخل الدولة الإسلامية، لذلك يحاول البعض تجاهلها أو التوقف عن البحث فيها، لكنَّ الحقيقة تُؤكد أن تلك الفرق الإسلامية، قد نشأت بفعل التطور الحضاري للأمم، وتُعد نموذجًا حضاريًا مميزًا أسهم في كل ما توصلت به الحضارة الإسلامية للريادة، وكان من الممكن أن تبقى هذه الفرق علامة فارقة في التاريخ الحضاري الإسلامي، لولا التدخل السياسي والتعصب لأفكار تلك الفرق، وتبني بعض الخلفاء والحكام لهذه الأفكار، ومحاولة فرضها على المخالفين، ثم معاقبة من يكون له رأي آخر، وكان هذا بفعل الأحادية الفكرية، التي سيطرت على أنظمة الحكم منذ تأسيس الدولة الأموية، ومرورًا بكل الدول التي تعاقبت على الحكم في العالم الإسلامي.

وتقف فرقة الإباضية أو المذهب الإباضي بوصفه فرقة أسهمت كغيرها من الفرق والمذاهب في الركب الفلسفي الإسلامي، بتنوعها الفكري، وتشعبها، وعلاقتها مع الفرق الإسلامية الأخرى، كما سعت الإباضية - كما سعت المذاهب والفرق الأخرى - إلى الإفادة من الجانب السياسي أو تبني الحكام لها، وعندما عجزت في ذلك، سعت في تأسيس مملكة خاصة بها؛ تحميها من الذوبان في الفرق الأخرى، التي استقوت بالخلفاء والأمراء، وكان لها ما أرادت، فتأسست دولة خاصة بهم، استقلت عن الخلافة العباسية وحكمت سلطنة عمان

الحالية، ووصلت حتى زنجبار، ولا يزال هذا المذهب هو السائد في هذه المنطقة.

تحاول الدراسة الكشف عن الرابط الكبير بين الصراع السياسي والتأسيس لنشأة الفرق الكلامية الإسلامية، وكيف قامت هذه الفرق على أساس هذا الصراع، الذي خلق كل الخلافات الفكرية التي رأينا عبر تاريخ الدولة الإسلامية، وحاولت الدراسة أن تبرز العلاقة بين الإباضية والفرق الكلامية الأخرى، خاصة فرقة الخوارج التي يرى الكثيرون أنها أساس الفكر الإباضي، وأن الإباضية هم في الأساس خوارج، سعوا فيما بعد للتأسيس لأنفسهم، بعد أن تخلّصوا من التشدد الفكري تجاه الكثيرين من أعلام الصراع الإسلامي حول الحكم، لذلك ابتعدت عن الأصل الخارجي، وارتبطت بالمذاهب الكلامية الأخرى.

تهدف الدراسة إلى الكشف عن العلاقات الكبيرة بين المذهب الإباضي والمذاهب الفكرية والدينية الأخرى، وكيف تلاقت الإباضية مع المعتزلة في العديد من القضايا الفكرية خاصة الأسماء والصفات، وكيف قالوا بكل ما قالت به المعتزلة في تلك القضية المهمة، وأبرزت كذلك الخلاف الفكري بين الإباضية المشاركة والمغربية في قضية خلق القرآن، وكيف كان العامل السياسي مؤثراً للغاية في هذا الخلاف الواضح بين المذهب الإباضي، وأبرزت الدراسة أن المشاركة تأثروا بقريهم من موطن الأحداث، ورأوا ما كان من نتائج خطيرة، نتيجة تعصب المأمون للفكر المعتزلي رغبة منه في تقويض المعارضة السنية لسياسات العباسيين، ففضلوا مقاومة السلطان، وعدم مسابرتة، فنزعوا في فكرهم إلى أهل السنة والجماعة والأشاعرة، رغبة منهم في التأكيد على أنهم ضد الظلم

والقهر، وأنهم جاءوا؛ ليعارضوا السلطان الجائر، وأوضحت الدراسة الاتساق الفكري بين الأصل الإباضي في الثورة على الظلم، وتبنيهم للقول بأن القرآن كلام الله، بخلاف المغاربة الذين كانوا بعيدين عن الصراع، فسايروا المعتزلة أو على الأدق سايروا منطقهم العقلي في التفكير وقالوا بخلق القرآن.

سعت الدراسة لتحليل رؤية الإباضية التي بدأت - من وجهة نظر الدراسة - من اللحظة التي بدأ الصراع حول الحكم في الدولة الإسلامية، فالإباضية ثورة فكرية ضد الهيمنة القرشية العربية على الدولة الإسلامية، لذلك عارضوا كل رجال الصراع، وحاولوا التأسيس ليكون الإمام مسلمًا، يتميز بالكفاءة التي تؤهله للحكم، بعيدًا عن قصة النسب والأصل والجنس، وهذا كان نتاجًا واضحًا للهيمنة القرشية على الحكم، والهيمنة العربية على الدولة دون الموالي، الذين شعروا بالغبن والقهر، وأسهموا بصورة كبيرة في كل الثورات ضد الدولة العربية، كي ينالوا حقوقهم التي نص عليها الإسلام.

تكمن أهمية الدراسة في محاولاتها العلمية في مناقشة قضية نشأة المذهب الإباضي وارتباطه بالصراع حول الحكم، وإبراز التأثير الواضح بهذا الصراع، لذلك كانت رؤيتهم تجاه الكثير من القضايا رؤية سياسية ثورية في المقام الأول، تؤسس لها الأصول المهمة التي كانت مصدر التأسيس للإباضية، وأهم تلك الأصول قضية مرتكب الكبيرة، الذي ضمن لهم الحكم على المخالفين لهم في الفكر والأيدولوجيا، التي كان لها أثرها العميق في الفكر الفلسفي الإسلامي.

لقد اعتمدت الدراسة المنهج التحليلي القائم على الرصد والتحليل، المعتمد على النصوص والمرويات من كتب المذهب الإباضي، التي روت الأحداث الرئيسية التي انتخبها الدراسة؛ لتكشف عن دورها في التأصيل لأصول المذهب.

وقد قُسمت الدراسة إلى مبحثين رئيسيين كالتالي:

أولاً: التأسيس السياسي للمذهب وصناعة الرؤية

١: الإمامة.

٢: مفهوم الولاية والبراءة.

٣: مرتكب الكبيرة.

٤: المنزلة بين المنزلتين.

ثانياً: الرؤية الكلامية والتماس السياسي

١: جملة التوحيد.

٢: الأسماء والصفات.

٣: قضية خلق القرآن.

٤: رؤية الله.

٥: الاستواء والعلو.

جاءت الخاتمة لتبرز أهم نتائج الدراسة المتمثلة في ارتباط نشأة المدارس الكلامية بالصراع السياسي حول الحكم، الهيمنة القرشية العربية على مكونات الدولة الإسلامية، وكشفت الدراسة عن ارتباط المدارس الكلامية بالثورة السياسية والفكرية على السائد داخل الدولة العربية الإسلامية، وأبرزت الدراسة العلاقة المهمة بين الإباضية والصراع السياسي بوصفها مدرسة سياسية في المقام الأول، لذلك جاءت أبرز أصولها مستمدة من الأصل السياسي للمذهب.

## أولاً: التأسيس السياسي للمذهب وصناعة الرؤية

### (١) الإمامة في الفكر الإباضي

يذكر مؤرخو الحركات الإسلامية والفرق أن الإباضية مذهب فكري خرج من عباءة جماعة الخوارج، التي كانت بدورها ثورة على الوضع المتأزم في تاريخ الدولة الإسلامية الناشئة، وفي نظرهم تبنت الإباضية الكثير من الأفكار التي قال بها الخوارج، أو ربما شارك علماء الإباضية في صياغة تلك الأفكار والمبادئ، بوصفهم كانوا معاصرين ومشاركين لتلك الحقبة المهمة في التاريخ الإسلامي.

كانت الصراعات الإسلامية التي شهدتها الحقبة الأولى عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم هي خلافات حول الخليفة الأحق بالخلافة، وكانت هذه الخلافات وليدة اللحظة الراهنة، التي نتجت عن وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، ووقف المعارضون لخلافة الصديق أبي بكر موقفاً سياسياً بحثاً، فلقد كانوا على وعي بما يفعلون، " فلم يزعم الذين اختلفوا على خلافة أبي بكر { ٥١ ق.هـ، ١٣ هـ ، ٥٧٣ : ٦٣٤م } ولا الذين اضطرعوا حول تصرفات عثمان بن عفان 47 { ق . هـ : ٣٥ هـ ، ٥٧٧ : ٦٥٦ م } أن واحداً من فرقاء هذا الصراع والخلاف قد مرق عن الدين أو أن الإسلام كدين قد أصبح وفقاً على موقف فريق دون فريق، كان خلافاً سياسياً أو اجتماعياً، تُسهم في تغذيته عوامل قبلية أو إقليمية، ويقوم بين أبناء الدين الواحد، وأهل القبلة الواحدة دون أن يزعم طرف من أطرافه أن له صبغة دينية<sup>(١)</sup>

لم يقم المسلمون الأول الدين في خلافاتهم السياسية، ولم يحاول أي فريق أن ينتصر بالإسلام على حساب الآخر، كانوا ينتصرون سياسياً أو اجتماعياً، لكن الدين بقي بعيداً عن حلبة الصراع، كان همهم الأكبر هو الاختيار الأمثل للحاكم، دون أية إثارة أو بلبلة تُضر بمصالح المسلمين، وظل هذا الحال إلى أن بدأت بوادر الفتنة الكبرى أو الصراع الأكبر حول السلطة مع مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وانطلقت التغيرات الفكرية تضرب أرجاء العقل الإسلامي؛ لتزلزله زلزلة عنيفة، لم تكن العقلية المسلمة في تلك الحقبة على استعداد لتقبلها فكرياً ومنطقاً، خاصة مع خيط الدم الذي بدأ في التدفق بين كبار الصحابة، الذين كانوا يُنظر إليهم بوصفهم صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام الأقرب للدين والأكثر فهماً له.

"شهد واقع الجماعة الإسلامية في العقد الرابع من القرن الأول الهجري، وبالتحديد شهر صفر من سنة ٣٧ هـ (٦٥٧م) ظروفًا قاسية، وصراعات دامية، وانقسامات منهكة، أثرت على الكيان الإسلامي، بدءاً بالفتنة الكبرى، وما بعدها، لقد كانت تلك الفترة، في تاريخ الأمة الإسلامية حصيلة عدة ظروف مثل الظروف السياسية، - الخلاف على الإمامة والصراع على الخلافة وأمور الإمارة - هذا بالإضافة إلى طبيعة الحياة الاقتصادية، التي سادت في ذلك الوقت - الاختلاف بين أهل مكة والمدينة وأهل الأمصار الأخرى - حالة المجاهدين والمستقرين وحقوقهم، وكيفية التعامل مع المسلمين الجدد<sup>(٢)</sup>

ينطلق الكثيرون في تحليلهم لظهور الفرق الإسلامية وفكرهم المعارض للعوامل السياسية والصراع حول الحكم فقط، وغاب عنهم فكرة العدالة الاجتماعية، وإعادة توزيع الثروات أو الغنائم التي حصل عليها المسلمون في

(الأصول الفكرية للمذهب الإباضي...) د. إيمان محمد محمد عمران.

الفتوحات الكبرى، واستثنى قريش بها أو أهل المدينة ومكة، ومن ثم شعر الكثير من العرب ومعهم الموالي بحالة غبن شديدة، أسهمت بصورة كبيرة في إنكفاء روح الخروج على الواقع الظالم - من وجهة نظرهم - وبطبيعة الحال انتهز الجميع فرصة الصراع حول الحكم؛ للتعبير عما يشعرون به من غبن وقهر نفسي، وراحوا يعارضون الفكر السائد أو الذي يتبناه المنتسبون للمدينة ومكة. إن هذا الشعور بالقلق جراء هيمنة قريش على السيادة في الجزيرة العربية، قد بدأ قبيل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وتمثل في صورة ادعاء النبوة أو الارتداد عن الإسلام، وكانت هذه المحاولات ثورة مكبوتة ضد الهيمنة القرشية وليست ضد الإسلام.

إن الخروج على الإمام علي والدولة الاموية عند الخوارج ومعهم الإباضية، كان رفضاً للمركز الكبير الذي حظيت به قريش، لقد كان رفضاً لتأسيس حكم قبلي لقريش دون غيرها من القبائل العربية أو الموالي الذي أعلنوا إسلامهم ودانوا للدولة العربية أو الإسلامية، وكانوا مكوناً كبيراً فيها، لذلك ينسب الوارجلاني حديثاً للمصطفى عليه الصلاة والسلام يشير إلى أن هلاك الأمة سيكون السبب فيه سفهاء قريش " عن أبي هريرة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: هلاك أمتي أو قال فساد أمتي على رؤوس أغيلمة من سفهاء قريش(٣)

لم يكتف الوارجلاني بهذا الحديث المنسوب للرسول عليه الصلاة والسلام بل استمر في سرده لما يؤكد أن ضياع الأمة سيأتي بسبب التصارع على الحكم من القرشيين، " عن راشد بن سعد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوماً، وعنده نفر من قريش، ألا إنكم ولادة هذا الأمر من بعدي، فلا أعرفن ما شققتم على أمتي، اللهم من شق على أمتي فشق عليه" وعن أبي هريرة عنه عليه



السلام، أنه قال: يهلك أمتي هذا الحي من قريش" (٤) تكشف هذه المقولات التحامل الشديد على القرشيين، وأن الخروج علي الإمام علي كان خروجاً على النفوذ القرشي الذي تحقق مع الدعوة الإسلامية، وكذلك الوضع الاقتصادي وتوزيع الغنائم، كل هذا أوغر الصدور، وأسس للثورة أو الخروج عليهم، منتهزين الصراع بين علي ومعاوية.

ترتبط الإباضية بالخوارج في رؤيتها للإمامة، فالمبدأ الأساسي في اعتقاد الخوارج " أن الحكم لله لا للرجال" كان ذلك هو الحافر بل الدافع الرئيسي في ابتعادهم (خروجهم) وانعزالهم عن جماعة المسلمين، وهم في ذلك يقررون أن تُقي المسلم وصلاحه هو السبيل الوحيد لتوليه السلطة العليا للدولة، -بمعنى الخلافة أو الإمامة-، ونتيجة لذلك، فإنه يجب أن تتوافر في هذا الفرد المسلم شروط الإمامة، بصرف النظر عن نسبه وجنسه ولونه (٥)

ويبدو من الأقوال السابقة أن الإباضية ترى الإمامة فرعاً من فروع المذهب وليس أصلاً رئيساً كما ترى فرق الشيعة، وبهذا تقول إن الإمامة عملٌ اجتهاديٌّ موكل للناس، فهم من يختارون ويقررون من يتولى عليهم، بوصفه عملاً إنسانياً يُفومُه الكتاب والسنة، ولا يُستمد من الكتاب والسنة.

" فالإمامة عندهم فرض، والاجتماع على من ولوه سنة ماضية، واختيار الإمام وطريقته عن طريق الرأي والاجتهاد. (٦)

لقد استندوا في رأيهم ذلك لموقفين في تاريخ الدولة الإسلامية، الأول كان موقف السقيفة والطريقة التي تم اختيار الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، والموقف الثاني: موقف الشورى الذي أمر به الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما قال الاختيار والمشورة، فكان الاختيار من بين

سنة مرشحين، انتهى الأمر بهما إلى اثنين، وتمت المشورة بين الخليفة الثالث عثمان بن عفان، والخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وتم الاختيار للخليفة الثالثة وتمت البيعة، وبذلك يكون الأمر للناس، اجتهادًا واختيارًا، فهو عمل إنساني، قوامه الشورى. " فإذا قدر المسلمون أن يولوا على أنفسهم إمامًا ويبايعوه على ما في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأثر السلف الصالح، على أن ينصف المظلوم من الظالم، وله عليهم المؤازرة والسمع والطاعة ما أطاع الله ورسوله، ويجب عليه النهي عن المنكر ورفع المظالم وإقامة الحدود<sup>(٧)</sup> تبدو وجهة نظر الإباضية في الإمامة أو الخلافة تقترب من مفهوم العقد الاجتماعي الحديث والمعاصر، فمنصب الإمام أو الخليفة إنساني إداري من خلال عقد يتم بين الحاكم والمحكوم، يتم بموجبه رعاية مصالح الأمة والرعية، طاعة الله ورسوله، وإقامة حدود الله، ورعاية مصالح الأمة من خلال توفير الأمن والأمان، وحفظ النفس، والمال والعرض، وإقرار العدل والمساواة، وبما أن هذا العقد أو العمل إنساني قائم على الاتفاق، فيحق للرعية أن تنفض البيعة أو العقد وتعزل الإمام أو الخليفة لو خالف ما اتفق عليه.

يقول الوارجلاني " ومن الرأي تأمير أمير المؤمنين، وعزله إن ضيع أمور الدين<sup>(٨)</sup>

تؤكد تلك المقولات الإباضية وجهة نظرهم في الإمامة والخلافة، وأنها عقد اجتماعي بموجبه يحق للرعية عزل الإمام أو الخليفة، بعد نصحه وتوجيهه للصواب، لكن إن تكبر ومارس سلطانه في الظلم والقهر، وخذلان الرعية، حق لهم عزله.

إن نظرة الإباضية للإمامة قريبة للفكر المعاصر، في السياسة وأمور الحكم، فهم يؤسسون لرؤية عامة، تؤكد أن جميع الرعية لهم الحق في الترشح لإدارة الدولة، دون الالتفات لنسب، وهم بذلك يدحضون مقولات الشيعة التي تقول إن أهل البيت أحق بالخلافة والولاية والإمامة، بوصفهم منصوص بذلك من قبل المولى عز وجل، ولا لجنسه، وهم بذلك يقولون بالمبدأ العام في الحكم أن كل مسلم مؤهل للحكم، طالما يمتلك المقومات التي تؤهله لذلك، وهم بذلك يدحضون رأي بعض أهل الفرق الإسلامية القائلين بضرورة أن يكون الإمام قرشياً، فالقرشيون والعرب ليسوا الأحق بالحكم، فالإمامة ليست نبوة أو رسالة يجب أن ينص عليها من قبل المولى عز وجل، وليست اختياراً لله، إنما هي اجتهاد بشري، يقوم به البشر من أجل سياسة أحوالهم، وحفظها، وتأسيس دولتهم التي تقوم على العدل والمساواة، ورفع الظلم، والحكم بما أنزل الله.

## (٢) مفهوم الولاية والبراءة

يرى الإباضية أن الولاية أصل من أصول الدين، لأنها تنتشر الود والمحبة بين عموم المسلمين، وتوجب التراحم بينهم، كما أن البراءة هي نوع من النصح والتوجيه غير المباشر للكافر والعاصي؛ حتى يرتدع وينصاع لأمر الله. فمن وجهة نظرهم " أن الأمة - يعنون بالأمة أصحاب المذهب الإباضي - اتفقت على أن ولاية المسلمين وحبهم والرحمة لهم والاستغفار لهم فريضة لقول الله عز وجل **وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** " ١٩ محمد " وقال **" رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ "** ٢٩ الفتح " ، وأن براءة الكافرين وبغضهم وعداوتهم فريضة واجبة لقول الله عز وجل **" ا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ " ١٣ الممتحنة** " وقال **" وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ "**

فَأَيُّهُ مِنْهُمْ " ٥١ المائدة" ... وقال الله تعالى لنبيه عليه السلام " فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ) ٢١٦ الشعراء " فبرأته من العمل براءة من العامل<sup>(٩)</sup> فالولاية تقول بها الآلية الكريمة وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان" وتقف الولاية عندهم في ثلاثة وجوه الأول: الموافقة في الشريعة؛ لأن الله تعالى أمر المؤمنين أن يكونوا على شريعة واحدة، ولا يختلفوا عليها، وأمرهم بالتعاون، وهذا أصل الولاية في الموافقة في الشريعة. والثانية: المحبة بالقلوب والتودد بالجوارح، فمن عري من محبتهم ومودتهم، لن ينتهي دون بغضهم، وهي البراءة، قال إبراهيم عليه السلام وعلى آله، " وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا، بالله وحده" ، والثالثة حقوقهم من المعونة والإسعاف والاستغفار والرحمة، وحسن المعاشرة، بعد المحبة والمودة ولا بد من الاستغفار<sup>(١٠)</sup>

تري الدراسة أن أصل الولاية والبراءة أصلاً يؤسس لمجتمع متماسك تربطه الإخوة الدينية، فكما ذكر النص السابق، الود والمحبة تفرضهما الشريعة على المؤمنين بها، فكل من يشترك معك في الدين تلزمه منك المحبة والمودة والنصح والتوجيه، وهذا مبدأ عام ينشر السلم المجتمعي بين أفراده.

"وكذلك كل من وجب عليه شيء فضيعه، فليس عليك من معرفته ومعرفة الفاعل إلا أن تعلم حرام عليه تركه، وليس عليك من معرفة أسمائه شيء لا من الكبير ولا من الفسق، ولا من النفاق، ولا من الشرك إلا الشرك الظاهر الذي ظهرت به تسوية البارئ سبحانه بخلقه، أو نفي وجوده، أو قصد إلى شخص بعينه. فهذه الوجوه الثلاثة لا يسعك إلا تشريكه وتكفيره وإيجاب العقاب له<sup>(١١)</sup>

جاء مفهوم البراءة ليقول بالرؤية السياسية لهم، فكأنهم وهم يتحدثون عن البراءة إنما كانوا يستعيدون مشاهد الخلاف بينهم والفرق الأخرى، فالبراءة من كل كافر

من وجهة نظرهم وعاصي، تؤسس للنفور والعقاب البدني من ذلك الكافر أو العاصي، والمعصية هنا قد تكون ناتجة - في رؤيتهم - من الخلاف السياسي، أو المذهبي، وبهذا وجبت البراءة أو التبرؤ منهم، نظرًا لما يعتقدونه من خلاف فكري ومذهبي، فرغم وجاهة ما ذكروا في الولاية، لكن البراءة لا تخلو من تعميم مخيف، وإطلاق الحكم في الاعتداء عليهم باللفظ أو القول، أو القتل فهذا أمر يهدد من ناحية أخرى السلم المجتمعي والأمن، ويتعارض كذلك مع مبادئ الإسلام، فلا يحق للمسلم الاعتداء على غير المسلم أو المسلم العاصي إلا فيما نص عليه الشرع ويكون بيد ولي الأمر دون غيره.

### (٣) مرتكب الكبيرة في الفكر الإباضي

ربط الإباضية بين الإسلام والإيمان ربطاً واضحاً، لذلك عدّوا الإيمان والإسلام مترادفين، وهي أسماء لفكرة واحدة وهي الدين، وهذا ما أوقعهم في ارتباط فكري، أو قادمهم لأفكار تبدو متشعبة أو مخالفة للعديد من الفرق الإسلامية، ف"الدين والإسلام، والإيمان أسماء مختلفة لشيء واحد، وهو طاعة الله؛ يقال: كل إيمان دين، كل إسلام دين"<sup>(١٢)</sup> وقد استدلوا بالعديد من الآيات القرآنية التي تؤيد وجهة نظرهم أو قاموا بتأويلها؛ لتتوافق مع رأيهم، وهذا التأويل هو الذي دفعهم للتأكيد على مجموعة من الأفكار التي رغبوا من خلالها في مساندة مبادئهم الفكرية، وربما هذا الفهم الذي قالوا به في الربط بين الدين والإيمان والإسلام، هو الذي جعلهم يتبنون فكرة كفر مرتكب الكبيرة.

وترى الدراسة أن هذا الربط يعد ربطاً فلسفياً يخالف الواقع أو الدلالة الحقيقية، فالإسلام أعم من الإيمان، والإيمان جزء أو صفة للمسلم، فكل مسلم

ليس بمؤمن، وكل مؤمن يعد مسلماً طالما أنه يعتقد الإسلام، ويعمل به وبتعاليمه.

قبل الحديث عن مرتكب الكبيرة في الفكر الإباضي، وفي علاقته فكر الخوارج، لا بد أن نقول إن فكرة مرتكب الكبيرة بواقعها الفلسفي قد نشأت نتيجة للخلاف السياسي الذي بدأ مبكراً في الدولة الإسلامية، وأثر في كل مناحي الحياة، فالصراع السياسي المبكر أوجد حالة من الارتباك السياسي والديني، جراء التداخيات العنيفة التي تلاحقت داخل الدولة الناشئة، ومع استشهاد سيدنا عثمان بن عفان، بدأت عملية التطرف الفكري، وتفسير أو تأويل ما يحدث بهدف الوقوف أمامه، وكانت التساؤلات المهمة التي طرحها العقل العربي عقب هذه الجريمة، كيف يتم التعامل مع هذه الجريمة؟ وهل يرتكب الصحابة مثل تلك الأفعال؟ وكيف يتم التعامل معهم في ضوء الشريعة الإسلامية؟

إن مثل هذه التساؤلات التي أعقبت الاضطراب السياسي الحاد بين صحابة رسول الله هي التي وجّهت العقول إلى التأويلات الفلسفية، قبل أن يفتح العقل العربي أو المسلم على الفلسفة الوافدة من حضارات الشرق التي اندمجت مع العقل العربي.

ويُعيد استشهاد عثمان بن عفان وتولي الإمام علي الخلافة، ونشوب الخلاف الشهير بين معاوية وعلي، وتتابع الأحداث، ثم خروج بعض أنصار الإمام علي عليه، بدأ الحديث في فكرة مرتكب الكبيرة بصورة أكبر، وذلك كي يصدروا حكمهم على أولئك الذين - من وجهة نظرهم - فرّقوا كلمة المسلمين، وأحدثوا في الإسلام ما ليس منه، " فأدانت المحكمة الأولى بالكفر علياً، عثمان، ومقاتلي موقعة الجمل ومعاوية وأنصاره، والمحكمين عمرو بن العاص وأبا

موسى الأشعري، وكل من وافق على التحكيم، وبتوسيع هذا المبدأ، أعلنوا تكفير كل مرتكب للكبيرة<sup>(١٣)</sup>

بدا واضحًا أن الرؤية التي خرجت للوهلة الأولى وأصدرت حكمها على مرتكب الكبيرة، كانت تعكس الحالة السياسية المضطربة في الدولة الإسلامية، تلك الفكرة التي سعت للتوفيق بين الدين، والأحداث السياسية، ومحاولة رآب الصدع واستعادة الهدوء، والنظام داخل الدولة، ونشطت الأفكار والمذاهب، التي بدأت فكرية، ثم انحرفت على يد بعض المذاهب؛ لتتحول إلى جماعات مسلحة، تناهض القائمين على الحكم، وتحاول إبعادهم، وتولي من يظنونه مناسبًا، أو يقومون هم بالحكم، وتلك الجماعات أسهمت في توسيع دائرة التكفير، والعنف المسلح الذي استمر لقرون طويلة داخل الدولة الإسلامية.

ارتبطت الفكرة الفلسفية بالحدث السياسي والصراع؛ فأنتجت هذه الأفكار التي لا تعبر عن الإسلام بوصفه دينًا، إنما تعبر عن نظرة الفرق الكلامية للواقع الخاص بدولتهم الناشئة، فالإسلام يؤسس للسلم المجتمعي، وتوفير الأمان للمسلمين في حياتهم، وتطبيق العقوبات الرادعة للخارجين عن الآداب العامة التي تحفظ قوام المجتمع.

### (٢/١) مرتكب الكبيرة بين الإباضية والخوارج.

قضية الكبائر أو مرتكب الكبيرة من الأمور الرئيسية في الفرق الإسلامية؛ لأنها ارتبطت بصراع الحكم وانقساماته، وربما كان ظهورها الأول في القرن الأول الهجري، مع احتدام الصراع بين معاوية وعلي بن أبي طالب، وما نتج عنه من ظهور الفرق الإسلامية.

ولقد لازم التشدد الخوارج في قضية مرتكب الكبيرة، وانتقلت إلى الإباضية تاريخياً بحكم علاقة النشأة الأولى، التي انقطعت بين الإباضية والخوارج، وإن كان كثير من المؤرخين لم يُسلم بعد بعملية استقلال المذهب الإباضي في تصحيحاته واجتهادات أئمة عن جملة معتقدات الخوارج ... والإباضية يقسمون الكفر إلى قسمين: كفر الشرك، وكفر النعمة، وكفر الشرك ينقسم إلى قسمين: كفر المساواة وهو أن يسوي العبد بين الخالق والمخلوق في الذات والصفات، وكفر الجحود والإنكار وهو إنكار وجود الله والملائكة والأنبياء، وصاحب هذا الكفر بقسميه مخلد في النار<sup>(١٤)</sup>

لاحظ المفكر الإباضي التشدد الواضح في قضية مرتكب الكبيرة، لذلك سعوا في تأويل هذا المنحى المتشدد في القضية، ومن خلال تأويلاتهم قالوا بفكرة كفر النعمة " أما كفر النعمة فيتمثل في اقتراح كبائر الذنوب والمعاصي، وقد قسموه إلى قسمين: صغائر وكبائر، والصغائر هي التي لم يثبت فاعلها حد، أو هي تلك الذنوب التي قل فيها الإثم، وبعضهم يصفها بأنه كل ذنب، لم يأت فيه وعيد، ولم يعينه، وحكم الصغائر مرتبط بالكبائر بمعنى غفران الصغائر عند اجتناب الكبائر لقوله تعالى "إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَفَّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا" (٣١) النساء " أما إذا أصر العبد على الصغائر فهو في الفكر الإباضي كافر أو مخلد في النار<sup>(١٥)</sup>

كما نقل عنهم أيضاً: وقالوا بالإصرار على أي ذنب كان كفراً، وقال عبد الرازي عيفي: " مرتكب الكبيرة موحد لا مؤمن، وكافر نعمة لا كفراً يُخرج من الملة، وأنه مخلد في النار، ولعل هذا ما سرى أيضاً حتى لدى بعض كتاب



الإباضية، أن ارتكاب الذنب يجر مباشرة إلى العذاب المقيم، وأن مجرد الموت عليه سبب للخلود في العذاب المقيم<sup>(١٦)</sup>

كانت هذه الآراء كثيرة وتوصف بالتشدد الناتج عن النشأة المشتركة مع الخوارج الذين بنوا رؤيتهم - ومعهم الإباضية مسايرة فكرية أو تأثرًا - على الرؤية السياسية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالصراع حول الحكم في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، ومن بعده.

لا تختلف رؤية الإباضية في قضية مرتكب الكبيرة عن رؤية الخوارج فيما يبدو، فكلاهما ساير الآخر في هذا الأمر، وسعى في تكفير مرتكب الكبيرة، " فلقد اتفق الخوارج على أن مرتكب الكبيرة كافر<sup>(١٧)</sup> الخوارج يكفرون صاحب الكبيرة على الإطلاق، فلا مجال عندهم لغير ذلك، فالتكفير يعد أساساً لنشأة المدرسة الفكرية لهم، التي خرجت من أتون حروب وصراعات كبرى، بين مجموعة من نخبة المسلمين، أريك هذا الصراع الجميع، وأحدث صدمة فكرية ودينية كبرى، زعزعت ثوابت الكثيرين من الذين عاصروا هذه الحقبة؛ لذلك جاء التشدد ربيعاً لهم في كل تصوراتهم الفكرية، وكان الخوارج أبرز تلك الفرق التي صاحبت التشدد، والعنف، والقسوة في خلق تصوراتهم، وممارساتهم الفكرية على أرض الواقع.

لقد أطلقوا العنان لشطحاتهم المتشددة حيث ذكر الإسفريني: إنهم يزعمون أن كل من أذنب ذنباً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فهو كافر، ويكون في النار خالدًا مخلدًا<sup>(١٨)</sup>

" وما يجدر الإشارة إليه هنا أن الخوارج بعد قولهم بتكفير مرتكب الكبيرة اختلفوا في نوع كفره، هل هو كفر شرك مخرج من الملة وصاحبه يعامل معاملة

الكفار الأصليين كاليهود والنصارى؟ أم أنه كفر نعمة يخرج صاحبه من الإيمان ولا يدخله في الشرك ويكون له معاملة تختلف عن الكفار المشركين؟ ... وقد قال بأنه كفر شرك عامة الخوارج، وفي هذا يقول أبو الحسن الأشعري " ومن قول الصفرية وأكثر الخوارج أن كل ذنب مغلظ كفر، وكل كفر شرك، وكل شرك عبادة للشيطان<sup>(١٩)</sup>

ذكرت من قبل أن تشدد الخوارج تحديداً نتج عن الصدمة الفكرية والدينية التي تعرضت لها الأمة الإسلامية في مهدها جراء الخلاف العنيف حول الحكم، مما أنتج هذا التشدد الذي برز في فكر الخوارج تحديداً، كونهم جماعة سياسية تبنت فيما بعد القضايا الفكرية، من أجل التأسيس لرؤيتهم في الفاعلين لتلك الفتنة أو الصراع الدموي حول الحكم؛ لذلك جاء مصطلح الكبيرة مفرداً وليس الكبائر؛ لأنهم - من وجهة نظر الدراسة - كانوا يقصدون الكبيرة السياسية التي أنتجت الخلاف والصراع، والدم والارتباك في الأمة، ثم توسعوا فيما بعد في عملية الإطلاق والتعميم التي شملت كل ذنب، وكل فعل يخالف رؤيتهم.

ولم تنته الأحداث السياسية المنتجة للصراع السياسي المتلبس لعبادة الدين، فالعقلية العربية لم تستطع في ذلك العصر المبكر أن تفصل بين الدين والسياسة، وما هو سياسي فقط، وما هو ديني فقط، وراحت تحارب السياسة بالمقولات الدينية، فكانت المعارضة السياسية للدولة أو للمتصارعين ترتدي عباءة الدين، والتكفير، والتفسيق، والخلود في جهنم، وهذا ما جعل الفرق الإسلامية تتوسع في أفكار وقضايا مثل مرتكب الكبيرة والخلود في النار؛ لأنهم قصدوا تأليب الرأي العام للمسلمين ضد أصحاب الصراع الأول أو ضد الدولة الأموية، أو حتى الدولة العباسية.

ويبرز الخلاف الواضح بين الفكر الإباضي والخوارج في النظر لمرتكب الكبيرة، فالخوارج يعممون الكفر على كل من ارتكب كبيرة، حتى أنهم يخرجونهم من الإسلام تمامًا، ويتحول إلى مشرك حقيقة وواقعاً ومعاملة، بينما يقول الإباضي بكفر النعمة الذي لا يخرج من الإسلام، لكنه يصفه بعدم الإيمان أو إخرجه من الإيمان، لكن يظل يُعامل معاملة المسلم، مادام حيًا.

### (٣) المنزلة بين المنزلتين:

جاء الخلاف بين الإباضية والمعتزلة في قضية المنزلة بين المنزلتين بسبب البناء أو التأسيس الفكري الذي نشأت عليه الإباضية، فالمنزلة بين المنزلتين لو قال بها الإباضية لوقعوا في مشكلة تأسيسية، وخالفوا بذلك أهم أصل قالوا به أو قامت عليه الجماعة أو المذهب، فمبدأ تكفير المخالفين أو الولاية والبراءة الذي أسسوا به لمذهبهم تقول بكفر مخالفهم، وتمنحهم الحق في تكفيرهم وقتما تعارضت المصالح أو الأفكار، أو احتدمت الصراعات الفكرية، وفي هذا النحو كانت الإباضية متأثرة بالخوارج الذي شاركوا الإباضية التأسيس والخروج للساحة الفكرية مع بداية الصراع حول الحكم.

كانت المعتزلة تقول بالمنزلة بين المنزلتين، أي أن صاحب الكبيرة له اسم المؤمن، وإنما يسمى فاسقاً، وكذلك لا يكون حكمه حكم الكافر، ولا حكم المؤمن بل يفرد له حكم ثالث، وهو المنزلة بين المنزلتين، فإن صاحب الكبيرة له منزلة تتجاذبها هاتان المنزلتان، فليست منزلته منزلة الكافر ولا منزلة المؤمن، بل له منزلة بينهما<sup>(٢٠)</sup> وهذا الأصل المعتزلي ترفضه الإباضية رفضاً قاطعاً رغم اتفاقهما في أكثر من أصل، لكن هذا الأصل خاصة لو قالت به الإباضية يهدم بنيان مذهبهم القائم على تكفير المخالف، لذلك جاء قولهم فيه أنه لا منزلة بين

(الأصول الفكرية للمذهب الإباضي...) د. إيمان محمد محمد عمران.

المنزلتين " وذلك أن معناها لا منزلة بين المنزلتين، أي بين الإيمان والكفر، وهما ضدان، كالأضداد، كلها، شبه الحركة والسكون، والحياة والموت، وقد أجمعت الأمة في أصلهم على أن من ليس بمؤمن فهو كافر، لقول الله تعالى " خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ " ٢ التغابن" وقوله " إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ) (٣) الإنسان، " وقوله عن سليمان عليه السلام لِيَبْلُؤَنِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ " ٤٠ النمل" (٢١) من الواضح التشدد الكبير في قضية الكبيرة التي اتضح من كلام الإباضية، وهذا يرجع إلى فكرة التأسيس التي بنيت على التكفير، لذلك فمن الطبيعي ألا يهدموا الفكرة الرئيس لهم، وأن يسايروها ويتشددوا فيها، لأن فيها بقاء المذهب.

لذلك فهم يصرون على مخالفة المعتزلة في هذا مخالفة واضحة فيقولون: فنقضت ذلك المعتزلة، ومن قال بقولهم إن أهل الكبائر ليسوا بمؤمنين ولا كافرين، أنهم فاسقون في النار مخلدون إلا طلحة والزبير، ومثل هذا كثير من اختلاطهم وتناقض مذهبهم، فثبت على الأصل المجتمع عليه، نحن وإياهم على أن من ليس بمؤمن فهو كافر، وأن الكفر ضد الإيمان، كالحياة والموت، ولا يخرج من أحدهما، إلا دخل في الآخر، ولو جاز أن يخرج من الكفر ولم يدخل الإيمان، لجاز أن يخرج من الثواب والجنة، ولا يدخل في النار (٢٢)

سيطر التشدد على الإباضية في مسألة المنزلة بين المنزلتين، التي قالوا خلاف المعتزلة فيها، ونادوا بكفر العاصي والمنافق، لكنهم حاولوا التخفيف ومخالفة الخوارج، وقالوا إنه ليس بكفر الشرك بالله، إنما هو كفر النعمة، أي أنه كفر بنعم الله، أي جحد بها، ولم يراع حقها.

## ثانياً: الرؤية الكلامية والتماس السياسي

### (١) جملة التوحيد

تُسمَّى الإباضية التوحيد "جملة التوحيد"، فهم يرونه جملة متكاملة، لا بد من الإقرار بها، ليكونوا مسلمين، وهم في تعريفهم لجملة التوحيد لا يختلفون كثيراً عن بقية المذاهب الإسلامية " فعندهم أن من أقر بالشهادتين، واعتقد أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الأحكام والشرائع هو الحق، فقد أصبح من الموحدين، ومن ثم تُنْفَى عنه أحكام المشركين، ويحرم سفك دمه، وغنيمته أمواله وسبي ذريته<sup>(٢٣)</sup>

يذهب يوسف ابن اطفيش إلى أن التوحيد " تجب - فيه - معرفة الله سبحانه والإقرار به أنه لا إله إلا هو ... وهو الواحد ذاتاً وصفة وفعلاً وعبادة فلا يسمى غيره بالله متعالٍ عن صفات المخلوقات فلا أول له ولا آخر، وهو شيء لا كالأشياء، ومعنى لا أول لأوليته ولا آخر لآخريته أن له أولية وآخرية، بحسب وجود الخلق وفنائهم أي سبباً، وبقاءً، ولا أول لذلك السبق ولا آخر لذلك البقاء ولا يخفى عنه شيء<sup>(٢٤)</sup>

يظهر من خلال النص السابق رؤيته للتوحيد بالله العلي القدير، فهم يسايرون أهل السنة والجماعة، وبقية المذاهب الإسلامية المعتدلة، التي تقر بوجود الخالق ووحدانيته، دون إضفاء أية أبعاد فكرية، تبعدهم عن الوجدانية، لذلك فهم يقولون صراحة " وإنما يخرج من الشرك بالإقرار والاعتقاد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن ما جاء به حق. وأما قوله " لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع " شهادة أن لا إله إلا الله وإني رسول الله وإني بعثت بالحق والبعث

بعد الموت والقدر" فوجهه أن المراد الإيمان الكامل والبعث والقدر خصلة واحدة لأنهما ولو تغايرا، لكن قد دخلا في قوله بالحق، وخصهما، بالذكر للاهتمام بهما، أو الرسالة والبعث، بالحق، واحدة والمراد، ثلاث لدخولهما، في الثالث ومن أتى بالجمل الثالث، تم توحيد، إلا إن أنكر قسماً، من الأقسام الآتية، أو شك فيه، وذكر جمهورنا، أنه لا يتم توحيد، عند الله إلا بمعرفة الأقسام وبولاية الجملة وبراعتها<sup>(٢٥)</sup>

وهم يقصدون بما سبق وبالأقسام التي يجب الإيمان بها، الإيمان بالله وبرسوله الكريم، وكتبه، ورسله، وبالقضاء والقدر، وبالموت، وقيام الساعة، والحساب، ثواب الله وعقابه، والملائكة، والحلال والحرام، وكل ما هو معروف في الدين الإسلامي، ومتوافق عليه من المذاهب الإسلامية المعتدلة<sup>(٢٦)</sup>

ويتشدد الإباضية أو يتمسكون بقوة في جملة التوحيد، ويسعون للتأكيد عليها؛ لأنها في معتقدهم - مثل بقية المذاهب - هي أساس الإسلام وجوهره، " فالعلوم ثلاثة أقسام هي: علم ما لا يسع الناس جهله طرفة عين، وعلم ما يسع جهله إلى الورود وقيام الحجة، وعلم ما يسع جهله أبداً، فأما علم ما لا يسع جهله طرفة عين، فهو معرفة التوحيد، والشرك لا يسع جهله؛ لأنه من جهل الشرك لم يعلم التوحيد؛ فوجب معرفة الشرك والتوحيد من أول البلوغ<sup>(٢٧)</sup>

وفي قضية جملة التوحيد في الفكر الإباضي تظهر قيمة التسليم بأوامر الله، وتوفيقه، وإلهامه، وإرساله للرسول، فالعقل من وجهة نظرهم، ليس بإمكانه أن يوجه الإنسان إلى جملة التوحيد، بل إرسال الرسول من قبل المولى عز وجل، والوحي الذي ينتزل على الرسول والأنبياء، هو الذي يمكن البشر من معرفة الله عز وجل " إن الناس لم ينالوا شيئاً من معرفة الله في الدلالة على توحيد، ولا

من معرفة شيء من دينه، إلا بتوفيق من الله لهم، على أسنة رسله، وتنبيه منه على أيديهم<sup>(٢٨)</sup>

من الواضح أن الإباضية لا يختلفون عن إجماع المسلمين في قضية التوحيد أو جملة التوحيد كما يطلقون عليها، فجمهور علمائهم يقولون بالتوحيد المطلق، وفق ثوابت الإسلام فالسالمي في كتاب مشارق أنوار العقل يقول " وفي الشرع أفراد المعبود بالعبادة بمعنى وحدته، والتصديق بها ذاتاً، وصفاتاً وأفعالاً، فليس هناك ذات تشبه ذاته تعالى، ولا تقبل ذاته الانقسام، لا فعلاً، ولا وهماً، ولا فرضاً<sup>(٢٩)</sup> " ويكمل صاحب مشارق الأنوار في سرد الصفات التي تتوجب على الإنسان للإقرار بالتوحيد، وهي من وجهة نظره، الإقرار بالعبودية لله، التوكل، الخوف، الرجاء، التفويض، التسليم.<sup>(٣٠)</sup>

وبهذا نخلص إلى أن الإباضية في قولهم بجملة التوحيد يتفقون مع عموم المسلمين في التوحيد، والإيمان بالله عز وجل والتسليم بقضائه وقدره، والتوكل عليه وتفويض الأمر له.

## (٢) الأسماء والصفات

يبدو الفكر الإباضي فكرًا توفيقياً، سعى أن يوفق بين المذاهب والفرق الأخرى داخل رؤيته ومنطقه، فالمتمائل للفكر الإباضي يجده لم يختص برؤية ثابتة أو منطق موحد، يسعى للتأصيل له، بل كان على خلاف ذلك، ينطلق من الفرق الأخرى، يلتقي أو يختلف، وتبدو الإباضية في ذلك جماعة إصلاحية، تريد خلق رؤية توفيقية؛ لكنها رغم هذا عجزت عن خلق هذه الرؤية التوفيقية، وهذا ما نراه جلياً في قضية الأسماء والصفات.

ففي قضية الصفات يظن القارئ للوهلة الأولى أنهم أقرب للفكر المعتزلي من غيره، وأنهم أسسوا لرؤية تنزيهية للمولى عز وجل، وافقوا بها المعتزلة، لكن هذا لم يكن دقيقاً، ففي قضية الصفات انقسم الإباضية إلى فريقين، الفريق الأول: المشاركة الذين ذهبوا في ذلك وفق الرؤية المعتزلية لصفات المولى عز وجل، " فلقد قسموا الصفة إلى ثلاثة أقسام: صفة ذاتية فقط، وصفة فعلية فقط، وذاتية باعتبار وفعلية باعتبار، فالأولى: هي كل صفة دلت على نفي ضدها عنه تعالى، واتصف بها بالفعل في الأزل، كالعلم والقدرة، والإرادة، والسمع والبصر، والحياة، والثانية: كل صفة دلت على نفي ضدها عنه تعالى، ولم يتصف بها الفعل في الأزل، كالخلق والإحياء، والإماتة، والحب والبغض، والقبض والبسط، والولاية والبراءة. والثالثة: كل صفة تحتل معنيين متغايرين، كحكيم فإنه بمعنى نفي العبث عنه تعالى صفة ذات، وبمعنى واضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، صفة فعل، وصادق فإنه بمعنى نفي الكذب عنه تعالى، صفة ذات، وبمعنى مخبر بالصدق، صفة فعل، وسميع فإنه بمعنى نفي الصم عنه، تعالى صفة ذات، وبمعنى قابل الدعاء، صفة فعل، ولطيف فإنه بمعنى عالم، صفة ذات، وبمعنى رحيم صفة فعل<sup>(٣١)</sup>

يتضح من ذلك أن إباضية المشرق كانوا أكثر تأثراً بالفكر المعتزلي في قضية الصفات والأسماء، فذهبوا مذهب المعتزلة في التنزيه لله عز وجل، وابتعدوا بذلك عن الأشاعرة وأهل السنة، رغم أنهم اتفقوا معهم في العديد من الأصول الأخرى، لكنهم هنا كانوا أقرب للمعتزلة، ربما بفعل التجاور والتلاقي الفكري، عبر التواصل المباشر بين الفرقتين، فمشارق الإباضية يقررون:



" تجريد الذات الإلهية من الصفات التي وصف الله بها نفسه، وتعتبر أن الصفات عين الذات مغايرة لها، وليست هذه الصفات عندهم حقائق مستقلة، وإنما هي اعتبارات ذهنية، ليس لها وجود في الخارج. فالله تعالى عليم بذاته لا يعلم هو غيره، سميع بذاته لا يسمع هو غيره، وهذا عين مذهب المعتزلة. كما أن الدافع الذي حدا بالمعتزلة إلى القول به هو الرد على فكرة الأقاليم عند النصارى، وعدم مماثلة الخالق للمخلوق" (٣٢)

ذهب الإباضية المشرقيين في تنزيه المولى عز وجل فنفوا ما وصف الله به نفسه، وحملوا على المجاز والتأويل، فالله عز وجل وهو يصف نفسه بما وصف لا يقصد المعنى الظاهر لعموم الناس، إنما له مقاصد خاصة، ليس كما فهم أهل السنة والأشاعرة، لذلك أفرد بعضهم أبواباً للرد على المخالفين لهم، فيردون على أقوال الأشاعرة قائلين " قال أبو عمار رحمه الله ردًا على الأشاعرة في قولهم بالتعدد والتغاير والقيام بالذات ما نصه: فلما أثبتوا صفات الله معان متغايرة متعددة، التمسوا لهذه المعاني المتعددة المتغايرة محلاً يحلون بها، ومقاماً يقيمونه فيه، فلم يجدوه لما كان الله في أزليته ليس معه شيء غيره، فلما لم يجدوا لما أقدموا عليه من القول، بهذا مخرجاً، سقط في أيديهم، ورأوا أنهم قد ضلوا، فتجاسروا، على القول بأنها حالة الصانع، جل جلاله، قائمة بذاته تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، إلى أن قال: وما عسى أن يرد عليهم، بأقبح من مقالتهم، حيث زعموا، أن الله جل جلاله، محل للأشياء، وأثبتوا أن ذاته، محل للمعاني، وضاهوا، بذلك قول اليعقوبية من النصارى، إلخ ( قوله وليس منه نعلم) أي وليس المذكور، من الصفات، بعضاً منه تعالى، نعلم بذلك علماً جازماً، لأنها لو كانت بعضاً، منه للزم، تبعض، ذاته، وتركيبها، من أبعاض" (٣٣).

كان الإباضية يصدرن في رأيهم في الأسماء والصفات عن قصد واضح، وهو تنزيه المولى عز وجل، والارتحال بالفكر الإسلامي بعيداً عن الأقاليم اليعقوبية النصرانية كما وصفها السالمي، فحوقاً من الفكر النصراني، سعا في عملية التنزيه المطلق، التي تشدد فيها بعض علماء الفرق الأخرى فبدا أنهم ابتعدوا عن صحيح الإسلام، أو بعبارة أدق بما وصف المولى عز وجل نفسه.

ولأنهم سعا في عملية التنزيه المطلق للمولى عز وجل نجدهم قد تأولوا كثيراً في تفسير بعض آيات الصفات، ففي تفسيرهم لقوله تعالى " غير المغضوب عليهم ولا الضالين " أول الخليلي الغضب بإرادة الانتقام أو بإنزال العقوبة، وعلل تأويله، هذا بقوله أن الغضب انفعال نفسي لا يليق بالله تعالى، وقد أخذ تأويله هذا بحرفه ابن أطفيش من تفسير هميان الزاد<sup>(٣٤)</sup> وذهبوا نفس المذهب السابق في تفسيرهم لكلمة يستهزئ في قوله تعالى " الله يستهزي بهم " فقالوا لا ينشأ الاستهزاء إلا عن جهل وحقيقته مننقية عن المولى عز وجل وشبه بعقله استهزاء الله عز وجل في الآية بما أجاب موسى عليه السلام، عندما قيل له " أتخذنا هزواً، قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، فالاستهزاء في تفسيرهم هو إنزال العقوبة، أو الانتقام<sup>(٣٥)</sup> وليس السخرية.

يتضح أن الإباضية المشاركة قد سعا في تنزيه الله بكل الصور الممكنة، ولجأوا كثيراً للتأويل، من أجل تحقيق وجهة نظرهم، وتنزيه المولى عز وجل، ولعل هذا كان جلياً في تفسيرهم للآيات المشار إليها سابقاً، ولقد بُنيت عقيدة المشاركة في هذه القضية على الصراع بين المسلمين والنصارى فكرياً وعقدياً، وكثرة الاحتكاك بينهم، كما تأثروا بالمعتزلة في قضية التنزيه المطلق، ويتعين علينا ونحن نختلف معهم فكرياً أن نكون على وعي بدوافعهم التي بنوا عليها

عقيدتهم في الأسماء والصفات، فهم كانوا يسعون لتنزيه المولى عز وجل، والابتعاد عن فكرة الأقانيم النصرانية، وقضايا التجسيد المادي للمولى عز وجل، وأفكار الحلول والاتحاد التي كانت في العقائد السابقة على الإسلام.

من بين مفارقات المذهب الإباضي هو انقسامهم في رؤيتهم لصفات الله إلى مشاركة، ومغاربة، ولكل منهما وجهة نظره التي تنطلق من مؤثرات حضارية، ارتبطت بتبني رؤية مختلفة، وهما بهذا يظهران كأنهما مذهبان مختلفان أو متعارضان في قضية الأسماء والصفات، فالمغاربة يقولون بما قال به عموم السنة في قضية الأسماء والصفات.

"والذي عليه المغاربة أن صفات الله كلها قديمة أزلية؛ لأنه يقال الله تعالى خالق في الأزل، على معنى سيخلق، ورازق في الأزل على معنى سيرزق وهكذا، كما مرّ، وأن الفرق بين صفة الذات وصفة الفعل عندهم أن يقال في صفة الذات لم يزل الله عالمًا، بما كان قبل أن يكون، ولم يزل قادرًا على إيجاد ما سيوجد قبل أن يوجد، وهكذا، ولم يزل رازقًا على معنى سيرزق وهكذا قال: وحاصله أن صفة الذات هي التي اتصف بها تعالى بالفعل، في الأزل، وصفة الفعل هي التي لم يتصف بها الفعل فيه، وإنما يتصف بها فيما لا يزال وهو راجع إلى القول بحدوثها" (٣٦)

أقر إباضية المغرب صفات الله كما هي، وكما أثبتتها المولى عز وجل لنفسه في كتابه الحكيم، وكانوا في ذلك مساييرين لعموم المسلمين، دون الوقوع تحت تأثيرات فلسفية وحضارية من الأديان السابقة أو من الفرق الإسلامية الأخرى، وكذلك لم يخضعوا في رؤيتهم لمعارضة أصحاب الديانة النصرانية، الذين قالوا بالأقانيم، فكانت رؤيتهم وفق فهمهم الأول لكتاب الله، دون اللجوء

لتأويلات أو تنزيهات تجنح بهم فكرياً إلى أبعاد تثير الشبهات أو الاختلافات، وتتعارض مع الفهم البسيط لعموم المسلمين.

فالاختلاف بين إباضية المشاركة والمغاربة قد كان نتيجة الاحتكاك المباشر بين المسلمين وغيرهم من النصارى، الذين كانوا ينادون بأفكار التجسيد والأقانيم، فالمعروف أن المسلمين قد بدأت تنتشر بينهم الأفكار الجديدة، غير المعهودة، التي لم يسبق أن تكلم فيها الصحابة والتابعون، نتيجة الاختلاط بأصحاب الفلاسف المختلفة، وترجمة كتب فلاسفة الشرق القديم، ومن أبرز هذه الأفكار، فكرة الكلام في أسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته، ونحو ذلك من المسائل التي كان يحذر منها الصحابة كثيراً لما ينشأ منها من الجدال الذي يؤدي إلى الفرقة والشقاق، ولما كان المغاربة من الإباضية يعيدون بعض الشيء عن التأثير المباشر بأفكار النصارى النسطوريين واليعاقبة وغيرهما من أصحاب الديانات والفلاسف المختلفة؛ كانت رؤيتهم في الأسماء والصفات أقل تأويلاً، بخلاف المشاركة الذين وقعوا تحت تأثير الصراع والمناظرات مع النصارى واليهود، وشيوع أفكار التجسيد والتنشيب؛ التي خاف منها المناظرون، وسعوا في تجاوزها، من خلال تنزيه المولى عز وجل عن كل ما يقول به هؤلاء، ولم تكن الديانات الوضعية ببعيدة فقد كانت تميل للتجسيد، والبأس الآلهة صفات إنسانية، نفر منها المسلمون، وخافت الفرق الكلامية من تأثيرها في العقيدة الإسلامية، أو تأثيرها في صورة الذات الإلهية لدى المسلمين؛ فلجئوا إلى فكرة التنزيه والتأويل، التي رفضها البعض، ونادوا بالابتعاد عنها؛ لأنها تفقد المولى عز وجل قدرته، أو تنفي عنه صفاته التي وصف بها نفسه في كتابه العزيز.

وعندما انتشرت هذه الفلسفات الوافدة على المسلمين، اضطروا إلى أن يتخذوا مواقف بإزائها، بهدف الحد من انتشارها، وتأثيرها، وكانت هذه المواقف تعبر عن رؤيتهم في النصوص الشرعية، وكيفية التعامل معها.

### (٣) قضية خلق القرآن

تعد قضية خلق القرآن من القضايا الشائكة، تلك التي تركت آثارًا خطيرة في مسيرة التفكير الإسلامي، فلقد كانت تلك القضية محنة كبرى ليس للفكر الإسلامي أو لشخص ما، إنما محنة كبرى لكل المسلمين، فلا تزال آثارها باقية في مخيلتنا الفلسفية والدينية والثقافية، ما جعلنا نتبنى الكثير من المفاهيم التي تعد صدى مباشرًا لتلك القضية.

ذكرت الدراسة منذ بدايتها أن العديد من القضايا الشائكة أو الخلافية التي أنتجت صراعًا عنيفًا كانت نتاجًا حقيقيًا للصراع السياسي المربك منذ عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، هذا الصراع الذي أنتج الكثير من الخلافات التي تبدو في ظاهرها عقدية أو فلسفية، وهي في حقيقتها سياسية، عُلفت بالطابع الديني، حتى تؤثر في المسلمين، وتدفعهم للتوحد خلفها، لكن هذا لم يحدث، ولم يتوحد المسلمون بل ازدادوا خلافًا وتفككًا، وتكفيرًا لبعضهم البعض، ومن بين تلك القضايا كانت قضية قدم القرآن وحدثه، التي كانت في جوهرها صراعًا سياسيًا خفيًا بين دولة المأمون العباسي، والمعارضة التي تبناها علماء الحديث والأئمة، الذين رأوا أن ما حدث للأمويين يعد ظلمًا واضحًا، لذلك سعوا من خلال آراءهم الدينية إلى رد الاعتبار لمعاوية بن أبي سفيان، فكما كانت المعارضة للأمويين تنتهم بالابتعاد عن صحيح الدين، وتخرجهم من الملة، بدأت المعارضة لدولة

العباسيين تخلق معتقدات جديدة، تُدين العباسيين، وترد للأمويين حقهم بعد عمليات التنكيل التي وقعت في حقهم.

كانت محنة القرآن وقدمه قضية صراع سياسي بين علماء الحديث وبين دولة المأمون كما ذكرت، لقد كانت القضية قضية " أمن دولة " بمفهومنا المعاصر، لقد استشعر المأمون ومستشاريه الخطر من تنامي المعارضة الدينية لحكمه، تلك التي ستؤثر بقوة على كيان دولة أبيائه، ولم يكن بمقدوره أن يواجه المعارضة الدينية، بالصاق التهم السياسية بهم؛ لأن هذا كان سيؤثر على موقفه، فقرر أن يحاربهم بنفس أسلوبيهم، وتبنى الفكر المعتزلي، الذي كان يناقض فكر علماء الحديث كلية، وراح المأمون يؤسس لذلك، واستغل أهم مقولة لهم، وهي قضية خلق القرآن، وراح يقضي على نفوذهم الشعبي بالقوة ومنها جاءت قضية خلق القرآن، التي أصابت الفكر الإسلامي بالاضطراب الشديد، والتصدع، وعاد الصراع الفكري ليتحول مرة أخرى إلى صراع عنف، وتسلط دولة<sup>(٣٧)</sup>.

هذا الصراع بهذا الشكل العنيف هو الذي أسس للاضطراب الذي بدا واضحًا في المذهب الإباضي وانقسامهم على أنفسهم، فبعضهم قال بقدم القرآن الكريم، وبعضهم قال بحدوثه، وهذا الاختلاف يعد تأثرًا واضحًا بالعنف البادي في هذه القضية، التي وقع الكثيرون فريسة للاضطهاد بسببها، وربما يكون هذا العنف وهذا الاضطهاد هو الذي جعل المشاركة يقولون بقدم القرآن، ويوافقون في ذلك أهل السنة والجماعة، ففي كتاب الكشف والبيان يخص القلهاقي بابًا كاملاً للرد على المعتزلة والقائلين بحدوث القرآن الكريم " قالت المعتزلة والقدرية أن كلام الله مخلوق وأن كلام الله ليس بقديم، وأنه لا يوصف بقدم الكلام، وسنشرح في كتابنا هذا ما يزول به الشبهة والالتباس، ويتجلى الغطاء، لمن وقف

من الناس، ونبين لأهل الزيغ، والاعوجاج قصد السبيل والمنهاج، ويحتج عليهم إن شاء الله بما تبين من الحق الواضح، والمنهج اللائح بتوفيق الله وعزته، وقوته ومنته، ونقول وبالله التوفيق إن كلام الله تعالى قديم؛ لأنه قد ثبت أنه متكلم، كما ثبت أنه عالم وأن من صفته الكلام، وهي صفة ذات<sup>(٣٨)</sup>

كان المشاركة الإباضية مؤمنين بقدّم القرآن الكريم، لذلك كانوا في موقفهم متشددين، وسعوا للرد على كلام المعتزلة والقدرية، بكل الحجج الممكنة، وتصدى أكثر من عالم من علمائهم للرد على القول بخلق القرآن الكريم وحدوثه.

من الواضح أن إعلان الإباضية المشاركة تأييدهم لكلام أهل السنة والجماعة لم يكن بالأمر الهين عليهم، فلقد خالفوا فيه منهجهم العقلي، ومقولاتهم في الأسماء والصفات، وكذلك خالفوا الفرع المغربي للإباضية مخالفة صريحة واضحة، يقول صاحب الحق الدامغ " أما أهل المغرب منهم فلبعدهم عن تلك الأحداث لم يترددوا في إعلان القول الصحيح من أول الأمر، إظهاراً للحق، واستناداً للحجة، وأما أهل الشرق، فقد حاول إمامهم الأكبر محمد بن محبوب رحمه الله أن يعلن ما أعلنه، إخوانه أئمة وعلماء الجناح المغربي غير أن محمد بن هاشم اشتدت معارضته، له في ذلك، فانثنى عنه، واتفقت كلمتهم على ما ذكرته سابقاً عندما اجتمعوا في مدينة دما " السيب حالياً" وهو الاكتفاء بما كان عليه سلف الأمة، وقصر القول عن التصريح بخلق القرآن أو عدمه<sup>(٣٩)</sup>

يعكس النص السابق الخلاف الذي جرى بين علماء الإباضية المشاركة في طريقهم إلى إقرار القول بقدّم القرآن الكريم، ومن الواضح أن مناقشات كثيرة قد جرت في هذا الأمر، وهذا يؤكد اجتماعهم في مدينة " دما . السيب " للتوصل إلى قرار أو كلمة موحدة فاصلة في هذا الأمر، حتى انتهوا إلى القول بقدّم القرآن

الكريم، أو الوقوف عند رؤية أهل السلف في هذا الأمر، لكن لماذا اتخذ المشاركة هذا الموقف مخالفين للفروض العقلية التي يستندون عليها في قضاياهم المختلفة؟ وكذلك مخالفتهم للمغاربة، يقول صاحب الحق الداغ " ولا أراهم وقفوا موقفهم هذا الموقف الصامت إلا سداً للذريعة، وتجنباً لمشايعة الظالمين، فإنهم رحمهم الله من أرسخ مبادئهم وأبرز سماتهم، مناهضة الظلم، ومصارعة الظالمين، من غير التفات إلى من صدر منه الظلم، أو من وقع عليه، وكانت الأبناء تترادف إليهم بما يتعرض له أبناء الأمة - من أبشع الظلم وأشنع القسوة- في العاصمة العباسية التي كانوا على مقربة منها، فكانوا يحسون بأنينهم وسياط الظالمين تلذع ظهورهم، وبشهيقتهم، وصوارمهم، تفصل رؤوسهم عن أجسادهم، فلم يكن لهم - وهم دائماً ثائرون على الظلم، منابذون للظالمين، وقد رقق الإيمان قلوبهم، وطهر، مشاعرهم من الأحقاد، - إلا أن يقفوا هذا الموقف، لئلا تجد السلطة الظالمة من قولهم، ما يبرز صنيعها، وقد جعلت من الدين جسراً، تعبر به إلى ما تهواه من سفك الدماء، وإزهاق الأرواح، وتعذيب الأجساد(٤٠)

لعب التسييس دوراً مهماً في إذكاء الخلاف الفكري الفلسفي بين الفرق الإسلامية، وتأكد لدى الدراسة دور الصراع السياسي المستمر داخل الدولة الإسلامية بكل مسمياتها، في خلق كل تلك الأفكار الخلفية الفلسفية، التي أثارت العديد من المشاحنات، ولعب الخلفاء والأمراء دوراً رئيساً في إذكاء مثل تلك القضايا، بهدف إلهاء المسلمين عن الثورة أو التعاطف مع الدول التي سقطت وتعرض المنتسبون لها إلى مذابح دموية عنيفة، خلقت نوعاً كبيراً من التعاطف معهم، فكان تعصب الساسة للقضايا وسيلة سياسية لغاية رئيسة تهدف لحماية الدولة.



ذكر صاحب الحق الدامغ أن المشاركة التزموا الصمت، وسكتوا عن القول برأيهم في قضية خلق القرآن الكريم، والحقيقة أنهم لم يلتزموا الصمت، بل شاركوا أهل السنة والجماعة في رأيهم، ونادوا به، وهذا ما أثبتته كتبهم التي تحدثت في هذا الأمر، واقتبست الدراسة بعد مقولاتهم فيه، ومنهم صاحب كتاب الكشف والبيان، وكذلك مشارق أنوار العقل، وكان تأييدهم لهذا الأمر نابعًا من منطقتهم الأساسي، وهو فكرة الثورة على من يفرق الأمة، أو يرفع عصا السلطان القاسية في وجه الرعية، ويجبرهم على اعتناق رؤية أحادية، تساعد على فرض سلطانه الظالم عليهم، لذلك نجدهم تبينوا أفكارًا تبدو متعارضة أو متناقضة، لكنها في حقيقة الأمر كانت تعكس موقفهم السياسي من أصحاب هذه القضايا ومدى تجبرهم، فهم عارضوا الخليفة الثالث عثمان بن عفان، ووقفوا ضد علي بن أبي طالب، وضد معاوية والدولة الأموية، وفي قضية خلق القرآن تجلّى رفضهم لتجبر الدولة العباسية ممثلة في المأمون، الذي أجبر الناس على القول بخلق القرآن، وهذا ما يفسر لنا موقفهم المساند بصفة كبيرة للمعتزلة في كثير من القضايا وعلى رأسها قضية الصفات، ثم رفضهم لمسايرتهم في قضية خلق القرآن، وهذا راجع إلى احتماء المعتزلة بالسلطان الذي يرفضه الإباضية.

خالف إباضية المغرب المشاركة في موقفهم من قضية خلق القرآن الكريم، وأعملوا رؤيتهم العقلية، التي قالت من قبل بنفي الصفات، التي انفقوا فيها مع المعتزلة، المدرسة الكبرى في أعمال العقل في تاريخ الفكر الإسلامي، وسايروا المعتزلة، وتأسيسهم السابق، وقالوا بحدوث القرآن أو أنه مخلوق، واختلفوا مع المشاركة في ذلك، وهذا الاختلاف كما ذكرت ناتجًا عن بعد المغرب عن الصراع المحتدم حول قضية خلق القرآن الكريم، وكذلك عدم شعورهم أو تبنيهم للرؤية

الثورية التي قامت عليها إباضية المشرق منذ اللحظات الأولى للصراع السياسي حول الحكم، هذا الصراع الذي خلق من الإباضية جماعة ثورية، ترفض كل ما يريد السلطان فرضه بالقوة والبطش، لذلك كان المشاركة يسايرون عقيدتهم الثورية قبل عقيدتهم العقلية بخلاف المغاربة.

فيقول الشيخ عامر الشماخي الإباضي ندين بأن الله خالق كلامه ووحيه، ومحدثه، وجاعله ومنزله، بل إنهم يتشددون ويقولون ليس منا من قال إن القرآن غير مخلوق<sup>(٤١)</sup>

تشدد المغاربة كالمعتزلة في قضية خلق القرآن حتى ذهب بعضهم إلى إخراج من يقول بغير خلق القرآن من المذهب ولا يعد إباضيًا؛ لأنه خالف إجماعهم.

#### (٤) رؤية الله

لم يختلف الإباضية عن المعتزلة في مفهومهم لرؤية الله عز وجل، فبما أنهم سايروا المعتزلة في قولهم بنفي الصفات أو السعي في تنزيه الله بصورة نفت الصفات عن الله، فكان من الطبيعي أن يكون فكرهم في رؤية الله موافقًا أو مأخوذًا من المعتزلة، فهم يقولون بعدم وجوب رؤية الله عز وجل، ويتأولون في الآيات التي تنص على رؤية المولى عز وجل.

كان العقل حاضرًا في نفيهم لرؤية الخالق عز وجل، فنتلخص رؤيتهم العقلية في أن الله عز وجل " كان قبل خلق الوجود كله، ولم تتحول ذاته، أو تتبدل صفاته، مما كانت عليه قبله، فلا تتصل ذاته سبحانه بشيء من مخلوقاته كما أنها لا تتفصل عنها؛ لأن كل ذلك من صفات الحوادث، ومن ثم كان إدراك

كنهها مستحيلاً عقلاً ونقلاً، وإنما غاية المعرفة الشعور بالعجز عن إدراك كنهها، كما قيل العجز عن الإدراك إدراك<sup>(٤٢)</sup>

وبعد اعتمادهم الرؤية العقلية سعوا في الاعتماد على النقل في تأكيد وجهة نظرهم في الرؤية، " قال الله عز وجل " لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ " ١٠٣ الأنعام"، فامتدح بذلك ومدائح الله عز وجل لا تزول في الدنيا ولا الآخرة، فمن زعم أن الأبصار تدرکه، فقد زعم أن هذا المدح يزول عنه في الآخرة، ومن زعم ذلك فقد جعل ربه منقوصاً وهذا الكفر بالله؛ لأن كل من كان النقص من صفته فليس بإله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وقد نفى الله عز وجل أن تدرکه الأبصار وأن يرى جهره فهو سبحانه وتعالى لا يرى في الدنيا ولا الآخرة؛ لأن مدائحه لا تزول<sup>(٤٣)</sup>

من النص السابق يتضح لنا تشددهم في نفي رؤية المولى عز وجل، معتمدين الآية الكريمة التي استشهدوا بها، بل يذهب صاحب الكشف إلى أن من يقول برؤية الله فقد كفر بالله، فالله عندهم أعظم من أن تدرکه الأبصار، كما وصف نفسه في الآية التي استشهدوا بها. كان الإباضية كالمعتزلة يخافون من تشبيهه الله عز وجل بالعبد؛ لذلك ابتعدوا بفكرة الصفات والرؤية حتى نفوها تماماً، وربما هذا ما أوجد اللبس أو الخلاف بينهم وبين المذاهب الأخرى، فكانت رؤيتهم حبا لله وتنزيهاً له، وخوفاً من الاقتراب من التجسيد والتشبيه المعروف في الديانة النصرانية.

سيطر الغلو على فكر الإباضية في قضية الرؤية وذلك لما سبق ذكره من أسباب، لكن الغلو حد بهم لإخراج القائل بالرؤية عن الإسلام فيقولون " ومن زعم أن الله يرى في الدنيا أو تمكن رؤيته، أو رآه أحد من خلقه أو يرى في

الآخرة، مثل كذا وكذا، فمثله بشيء من خلقه، أو حد له، مكاناً دون مكان، أو وصفه، بنهاية أطراف فهو مشرك، والشاك فيه مثله، ومن نفى عنه الشرك فهو كافر، والشاك فيه مثله<sup>(٤٤)</sup> نفوا الرؤية مطلقاً، تنزيها للمولى عز وجل، وكفروا من قال بغيرها، وهذا شطط فكري وقعت فيه كل الفرق عندما كفرت بعضها بسبب الخلافات الفكرية أو الاجتهادية في القضايا الخلافية، وهذا ما جعل هذه الفرق تتداعى؛ لأنهم سعوا جميعاً في سحق بعضهم البعض، وكثيراً ما استعانوا بالسلطان في ذلك؛ ففسدت رؤاهم، وضاع منهجهم، وكرههم العامة؛ لأنهم جلبوا العنف والاضطهاد كما جرى في قضية خلق القرآن.

اعتمد الإباضية في نفيهم لرؤية المولى عز وجل إلى تأويل الآيات التي قالت بالرؤية أو الأحاديث الصحيحة التي قالت بذلك، والآيات التي نصت على الرؤية عندهم تقصد الانتصار أو الرحمة ولا تعني الرؤية الحقيقية لله، فالله أعظم من أن يُدرك هذا في مذهبهم.

#### (٥) الاستواء العلو

يكمل الإباضية مسايرتهم للمعتزلة في نفي الصفات، فيقولون في الاستواء والعلو، أن الاستواء يعني القدرة، والاستيلاء والسلطان، فيقول صاحب كتاب كشف البيان " قال أهل الاستقامة بمعنى استوى استولى عليه، بالملك والتدبير، والقهر، وخص العرش، بذلك تشريفاً لذكوره، ... وليس كون الشيء فوق الشيء عظمة وجلال إنما العظمة والجلال والقدرة أن يكون فوق الأشياء بالقهر والسلطان والقدرة، والغلبة والملك والتدبير<sup>(٤٥)</sup>

سعى الإباضية في نفي التجسيد أو التشبيه عن المولى عز وجل، وراحوا يطرقون كل أبواب العقل وتأويل النقل؛ ليؤكدوا مذهبهم الفكري في قضية الصفات.

" إن الله تعالى خلق العرش، وتعبد بعض الملائكة بحمله، وبعضهم بالطواف حوله، والملائكة تحمل العرش، ولا تحمل رب العالمين، جل وعلا، عن ذلك علواً كبيراً، والعرش قد يكون في لغة العرب السرير، وقد يكون الملك، وقد يكون السقف، فإن قال قائل إذا كان له سرير فلا بد أن يكون جالساً عليه؟ قيل إن الله تعالى قد سمى مكة بيته، ولا يكون ساكناً فيه، قيل وكذلك له عرش وكروسي، ولا يقال إنه جالس عليه، وله سماء، ولا يقال يستظل بها(٤٦)

## الخاتمة

سعت الدراسة عبر القراءة في المرويات الإباضية، وأصولهم الفكرية والفلسفية، ومن خلال الدراسة والتحليل لعقيدتهم استطاعت الدراسة أن تتوصل إلى النتائج التالية:

**أولاً:** كشفت الدراسة عن الارتباط الواضح بين فكر الإباضية والواقع السياسي في الدولة الإسلامية الناشئة.

**ثانياً:** أوضحت الدراسة أن المذهب الإباضي لا يتمتع برؤية فكرية مستقلة تؤسس له، وتخلق أصوله وأفكاره، بل كان مذهباً أقرب للتوافقية، فهو متأثر بكل المذاهب الأخرى.

**ثالثاً:** يمزج المذهب الإباضي في أصوله بين النقل أو الشرع والعقل، فنراه في قضايا يؤسس للالتزام بالشرع والنقل كما في قضية جملة التوحيد.

**رابعاً:** بدا واضحاً الارتباط بين المذهب الإباضي والخوارج في القضايا المرتبطة بالصراع السياسي.

**خامساً:** تأثر الإباضية بالفكر الاعتزالي في قضايا الرأي والعقل المرتبطة بصفات الله وأسمائه.

**سادساً:** كشفت الدراسة عن البعد السياسي الواضح في تبني الإباضية المشاركة لقضية القرآن كلام الله، متعارضين أو ثائرين على المذهب الذي تبنته السلطة آنذاك.

**سابعاً:** أوضحت الدراسة أن الانقسام الذي بدا واضحاً أحياناً بين الإباضية المشاركة والمغاربة كان ناتجاً عن بعد المغاربة عن موطن الصراع الفكري والسياسي الذي يعترى الدولة الإسلامية من وقت لآخر.

ثامناً: أثبتت الدراسة أن المذهب الإباضي يسعى للاعتدال في العديد من القضايا الفكرية؛ لذلك نراه يمزج بين النقل والعقل، يساير أهل السنة والأشاعرة، والمعتزلة بصورة واضحة.

## الهوامش

- (<sup>١</sup>) محمد عمارة، تيارات الفكر الإسلامي، دار الشروق، ط٢، ١٩٩١م، ص: ٩
- (<sup>٢</sup>) ناصر المرشد البريك، الإباضية في الفكر السياسي الإسلامي وأثرها في قيام الدول، الاجتهاد، مج٤، ع١٣، ١٩٩١، ص: ١٠٥
- (<sup>٣</sup>) أبو يعقوب يوسف الوارجلاني، الدليل والبرهان، تح، سالم بن حمد الحارثي، ط ٢، ٢٠٠٦م ج١، ص: ٢٠
- (<sup>٤</sup>) المرجع السابق: ص ٢١
- (<sup>٥</sup>) ناصر المرشد البريك، الإباضية في الفكر السياسي الإسلامي وأثرها في قيام الدول ص: ١٠٨
- (<sup>٦</sup>) فرحان عودة العنزلي، عزل الأئمة في الفكر الإباضي، مجلة كلية الآداب، جامعة قناة السويس، ع ١٩، ٢٠١٦م ص ١٠٦
- (<sup>٧</sup>) المرجع السابق، ص ١٦٠
- (<sup>٨</sup>) الوارجلاني، كتاب الدليل والبرهان، ج٣، ص٦٢
- (<sup>٩</sup>) تبغورين بت داوود المشلوطي، أصول الدين، ص: ١٤٩ : ١٥٠
- (<sup>١٠</sup>) الوارجلاني: الدليل والبرهان، ج٣، ص: ١٦٩
- (<sup>١١</sup>) الوارجلاني، الدليل والبرهان، ج٣، ص ١٧٢
- (<sup>١٢</sup>) أبو يحيى زكريا بن الحير الجنائوني، كتاب الوضع، تح: أحمد بن صالح الشيخ أحمد، بكير بن محمد بن عيسى فخّار، مكتبة الضامري، عمان، ط١ ٢٠١٥م، ص ٦٤
- (<sup>١٣</sup>) بيير كوبرلي، مدخل إلى دراسة الإباضية وعقيدتها، تر: عمار الجلاصي، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١١م، ص: ١٢
- (<sup>١٤</sup>) عبد الفتاح أحمد الفاوي: الإباضية الطائفة والمذهب، جامعة القاهرة، مركز اللغات الأجنبية والترجمة التخصصية، ع ١٤، ١٩٩٤م، ص: ٥٨
- (<sup>١٥</sup>) راجع في ذلك عبد الله بن حميد السالمي، مشارق أنوار العقل، تح، عبد الرحمن عميرة، دار الجبل، ج١، ط١ ١٩٨٩م، ٣٧٦: ٣٧٨، وكذلك عبد اله بن حميد السالمي، بهجة أنوار العقل، تح، علي بن سعيد الغافري، ص: ٢١٥
- (<sup>١٦</sup>) د مصطفى بن الناصر ونتين، الإصرار على الذنب وأثره في العمل عند الإباضية، مجلة الأمير عبد القادر للعلوم الإنسانية، ع، ٢٧، أبريل ٢٠٠٩م، ص: ١٦



- <sup>١٧</sup> راجع في ذلك: على بن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، تح، د. عبد الله التركي، شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط ١٤٠٨هـ، ص ٥٢٥ : ٥٢٩، وكذلك: أبو العباس أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي، الزواجر عن اقتراف الكبائر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٤١٤هـ، ص ٧ : ١١
- <sup>١٨</sup> أبو المظهر طاهر بن محمد الإسفراييني، التبصير في الدين، تح، كمال يوسف الحوت، عالم الكتب، بيروت، ط ١٤٠٣هـ، ص ٤٥
- <sup>١٩</sup> سليمان بن صالح بن عبد العزيز الغصن، عقيدة الخوارج في مرتكب الكبيرة، مجلة جامعة الإمام، بن سعود الإسلامية، ع، ٥٠، ٢٠٥، ص: ١٠١
- <sup>٢٠</sup> القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، ص ٦٩٧
- <sup>٢١</sup> تبغورين بن داوود المشلوطي، أصول الدين ص: ١٢٣
- <sup>٢٢</sup> المرجع السابق، ص: ١٢٥
- <sup>٢٣</sup> أبو الحسن علي بن محمد البسياني: مختصر البسيوي، وزارة التراث القومي، سلطنة عمان، ص: ٩
- <sup>٢٤</sup> محمد بن يوسف بن أطفيش، الذهب الخالص المنوه بالعلم القالص، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، ص: ٢٥
- <sup>٢٥</sup> المرجع السابق، ص : ٢٩ : ٣٠
- <sup>٢٦</sup> انظر المرجع السابق، ص ٢٩ : ٤٩
- <sup>٢٧</sup> أبو زكرياء يحيى بن الخيرالجتاوني، كتاب الوضع، تح، أحمد بن صالح الشيخ أحمد، بكير بن محمد فخار، مكتبة الضامري، سلطنة عمان، ط ١، ٢٠١٥م، ص: ٣٠
- <sup>٢٨</sup> أبو عمار الكافي الإباضي، الموجز في تحصيل السؤال وتلخيص المثال في الرد على أهل الخلاف، تحقيق، د. عمار الطالب، الشركة الوطنية الجزائرية، ١٣٩٨هـ ج ٢، ص ١٣١
- <sup>٢٩</sup> عبد الله بن حميد السالمي، مشارق أنوار العقل، ج ١، ص ٣٠٣
- <sup>٣٠</sup> انظر في ذلك المرجع السابق ج ١، من ص ٣٠٥ : ٣١٤
- <sup>٣١</sup> عبد الله بن حميد السالمي، مشارق أنوار العقل، ج ١، ص ٣٤٤ : ٣٤٣
- <sup>٣٢</sup> عبد الفتاح أحمد الفاوي، الإباضية الطائفة والمذهب، مجلة دراسات عربية وإسلامية، جامعة القاهرة، مركز اللغات الأجنبية والترجمة التخصصية، ج ١٤، ١٩٩٤م، ص: ٥١
- <sup>٣٣</sup> عبد الله بن حميد السالمي، مشارق أنوار العقل، ج ١، ٣٥٣ : ٣٥٢

- <sup>٣٤</sup> ( محمد بن يوسف الوهبي، هميان الزاد إلى دار الميعاد، وزارة التراث القومي، سلطنة عمان، ١٩٩٨م ج١، ص٤٢
- <sup>٣٥</sup> ( محمد بن أطفيش تيسير التفسير، تح، إبراهيم طلاي، المطبعة العربية، غرداية، ١٩٩٨م، ج١، ص ٣٦
- <sup>٣٦</sup> ( عبد الله بن حميد السالمي، مشارق أنوار العقل، ج١، ص: ٣٤٣
- <sup>٣٧</sup> ( راجع في ذلك، محمد عابد الجابري، المتفقون في الحضارة العربية، محنة ابن حنبل، ونكبة ابن رشد، ص ٩٠ : ١٠٢
- <sup>٣٨</sup> ( محمد بن سعيد الأزدي القلھاتي، الكشف والبيان، تح، د. سيدة إسماعيل الكاشف، وزارة التراث القومي، سلطنة عمان، ١٩٨٠، ج١، ص ٢٨٩
- <sup>٣٩</sup> ( أحمد بن حمد الخليلي، الحق الدامغ، سلطنة عمان، ١٤٠٩ هـ، ص ١٠٧
- <sup>٤٠</sup> ( المرجع السابق، ص ١٠٧
- <sup>٤١</sup> ( أحمد عبد الفتاح الفاوي، الإباضية الطائفة والمذهب، ص ٥٦
- <sup>٤٢</sup> ( أحمد بن حمد الخليلي، الحق الدامغ، ص ٦٧
- <sup>٤٣</sup> ( محمد بن سعيد الأزدي القلھاتي، الكشف والبيان، ص: ١٥٥
- <sup>٤٤</sup> ( تبغورين بن داوود المشلوطي، أصول الدين، تح، د. ونيس الطاهر عامر، مكتبة الجيل الواعد، سلطنة عمان، ط ١، ٢٠٠٥م ص: ١٩٥
- <sup>٤٥</sup> ( محمد بن سعيد الأزدي القلھاتي، الكشف والبيان، ص ١٨٣
- <sup>٤٦</sup> ( المرجع السابق : ص ١٨٤

### المراجع

- أبو الحسن علي بن محمد البسياني: مختصر البسيوي، وزارة التراث القومي، سلطنة عمان.
- أبو العباس أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي، الزواجر عن اقتراف الكبائر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٤ هـ.
- أبو المظهر طاهر بن محمد الإسفراييني، التبصير في الدين، تح، كمال يوسف الحوت، عالم الكتب، بيروت، ط ١ هـ،
- أبو زكرياء يحيى بن الخير الجناوني، كتاب الوضع، تح، أحمد بن صالح الشيخ أحمد، بكير بن محمد فخار، مكتبة الضامري، سلطنة عمان، ط ١، ٢٠١٥ م.
- أبو عمار الكافي الإباضي، الموجز في تحصيل السؤال وتلخيص المثال في الرد على أهل الخلاف، تحقيق، د. عمار الطالب، الشركة الوطنية الجزائرية، ج ٢، ١٣٩٨ هـ
- أبو يحيى زكريا بن الحير الجناوني، كتاب الوضع، تح: أحمد بن صالح الشيخ أحمد، بكير بن محمد بن عيسى فخار، مكتبة الضامري، عمان، ط ١، ٢٠١٥ م.
- أبو يعقوب يوسف الوارجلاني، الدليل والبرهان، تح، سالم بن حمد الحارثي، ج ١، ط ٢، ٢٠٠٦ م.
- أحمد بن حمد الخليلي، الحق الدامغ، سلطنة عمان، ١٤٠٩ هـ
- ببير كويرلي، مدخل إلى دراسة الإباضية وعقيدتها، تر: عمار الجلاصي، دار الفرق للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠١١ م.

- تبغورين بن داوود المشلوطي، أصول الدين، تح، د. ونيس الطاهر عامر، مكتبة الجيل الواعد، سلطنة عمان، ط ١، ٢٠٠٥م.
- سليمان بن صالح بن عبد العزيز الغصن، عقيدة الخوارج في مرتكب الكبيرة، مجلة جامعة الإمام، بن سعود الإسلامية، ع، ٥٠، ٢٠٠٥.
- عبد الإله بن حميد السالمي، بهجة أنوار العقل، تح، على بن سعيد الغافري، وزارة التراث القومي، سلطنة عمان.
- عبد الفتاح أحمد الفاوي، الإباضية الطائفة والمذهب، مجلة دراسات عربية وإسلامية، جامعة القاهرة، مركز اللغات الأجنبية والترجمة التخصصية، ج ١٤، ١٩٩٤م.
- عبد الله بن حميد السالمي، مشارق أنوار العقل، تح، عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، ج ١، ط ١، ١٩٨٩م.
- على بن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، تح، د. عبد الله التركي، شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٠٨ هـ.
- فرحان عودة العنزلي، عزل الأئمة في الفكر الإباضي، مجلة كلية الآداب، جامعة قناة السويس، ع ١٩، ٢٠١٦م.
- القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، تح: عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، ١٩٦٥م.
- محمد بن أطفيش تيسير التفسير، تح، إبراهيم طلاي، المطبعة العربية، غرداية، ج ١، ١٩٩٨م.
- محمد بن سعيد الأزدي القلھاتي، الكشف والبيان، تح، د. سيدة إسماعيل الكاشف، وزارة التراث القومي، سلطنة عمان، ١٩٨٠.
- محمد بن يوسف الوهبي، هميان الزاد إلى دار الميعاد، وزارة التراث القومي، سلطنة عمان، ج ١، ١٩٩٨م.

- محمد بن يوسف بن أطفيش، الذهب الخالص المنوه بالعلم القالص، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان.
- محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية، محنة ابن حنبل، ونكبة ابن رشد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠م
- محمد عمارة، تيارات الفكر الإسلامي، دار الشروق، ط٢، ١٩٩١م.
- مصطفى بن الناصر ونتين، الإصرار على الذنب وأثره في العمل عند الإباضية، مجلة الأمير عبد القادر للعلوم الإنسانية، ع، ٢٧، أبريل ٢٠٠٩م.
- ناصر المرشد البريك، الإباضية في الفكر السياسي الإسلامي وأثرها في قيام الدول، الاجتهاد، مج٤، ع١٣، ١٩٩١م.

### Abstract

This study deals with a sect or philosophical school of difference or theological Islamic schools of thought, namely the Ibadi sect. It is this division that created and shaped political differences and the struggle over governance, And it highlighted its role, as it was one of the most important pillars in establishing the verbal sects, as it is one of the oldest groups, which built its vision and religious belief through the Arab domination of the reins of conflict and governance and their marginalization of other nations or loyalists who converted to Islam, and the study revealed the clear relations between the Ibadi school and other sects. This study aims to reveal the intellectual origins of the Ibadi school of thought, its role in Islamic thought, its relationship with other currents and doctrines that agreed with and disagreed, and how the view of the Ibadi scholars about the political differences that arose at the beginning of the establishment of the Islamic state, and their role in establishing the science of theology. The study adopted the analytical and philosophical method, to find out the intellectual and cultural structure of Ibadi philosophy in general, and their intellectual and political origins in particular, and the extent of its development in accordance with historical reality. The conclusion came to highlight the role of the Ibadi school of thought in establishing a new vision in Islamic thought and the history of verbal sects, and seeking to exploit historical incidents in order to confirm their vision.

**Keywords:** Doctrine, conflict, Kharijites, Ash'ari, blasphemy, great.